التواصل الثقافي بين حاضرة توات وحواضر الغرب الإسلامي.

لقد عرفت منطقة الغرب الإسلامي حركة علمية وثقافية منذ عرف أهلها الدين الإسلامي واللغة العربية ، الشيء الذي جعل المنطقة لا تشذ عن المشرق الإسلامي في دفع عجلة الحضارة العربية الإسلامية ؛ فقد شهدت منطقة الغرب الإسلامي بمراكزها وحواضرها ؛ كالفسطاط ، والقيروان ، وفاس ، وتيهرت ، وبجاية ،وتلمسان ، وشنقيط...وغيرها احتفاءً كبيرا بالعلم و الثقافة ، وامتد هذا الاحتفاء إلى المناطق الصحراوية كمنطقة الزاب ، ووادي ميزاب ، وتوات ،وسجلماسة...وغيرها ، فكان لهذه المناطق الصحراوية دورها وإسهاماتها في تلك الحضارة التي خلفت آثارا يحار فيها الزمان.

تعد منطقة توات جزء لا يتجزأ من العالم العربي الإسلامي، وبحكم موقعها بالجزء الغربي منه فقد كانت لها علاقات كبيرة بمدن هذه الجهة وغيرها من العالم الإسلامي وغير الإسلامي (إفريقيا) ، وقد عرفت المنطقة نزوحَ العديدِ من القبائل العربية بعد أحداث القرامطة في البحرين والفاطميين في مصر وتيهرت ، وبعد سقوط الأندلس ، مما شجع الحركة العلمية والثقافية بهذه المنطقة ؛ من إنشاء لمراكز علمية (زوايا ، مدارس قرآنية ، مكتبات عامة وخاصة...)،كما ورث أهل المنطقة عن النازحين الكثير من الصفات والخلال الحميدة ناهيك عن الدين و اللغة لأن أهل المنطقة الأصلين كما نعلم كانوا برابرة.

عرفت منطقة توات نزوحا جماعيا من المشرق العربي فمع مطلع القرن السابع الهجري(13م) هاجرت إلى الإقليم قبائل عربية بعد أحداث القرامطة بالبحرين والفاطميين بمصر ، وقد كان لهم دور كبير في تثبيت اللغة العربية ونشر الإسلام ، بالإضافة إلى تمصير المدن وبناء القرى وإعمار الصحراء[1] ، ويمدنا الشيخ محمد باي بلعالم بقوافل من القبائل العربية التي نزحت إلى توات إما فرارا ، أو بحثا عن الراحة والهدوء فيقول :"توافدت العرب أفوجا في أزمنة متباعدة مثل أولاد محمد ، والخنافسة ، والمحارزة ، وأولاد طلحة ، وأولاد باحمو ، وأولاد أعمر أملوك ، وأولاد غانم ، وأولاد الحاج ، وأولاد منصور ، وأولاد عابد ...وغيرهم "[2] .

أما الوافدون على المنطقة من الغرب الإسلامي فكانوا كذلك أفرادا وجماعات ، وأذكر منهم الشيخ القاضي أبو يحي بن محمد الذي دخل في سنة 815هـ وتولى القضاء بها[3] ، وفي سنة 845هـ جاء السيد يحي بن إيدير شيخ الإمام المغيلي ، فولي القضاء ، أما الإمام السيد عبد الله بن أبي بكر العصموني فكان دخوله سنة870هـ ، وفي السنة ذاتها جاء الإمام الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي ولما رجع من رحلته وجد اليهود عاثوا في المنطقة فسادا فقرر إخراجهم منها وتطهيرها منهم[4] .فالشيخ المغيلي كان له دور فعّال في المنطقة ؛ حيث كان يفيد ويستفيد ، بالإضافة إلى ذلك فقد حارب اليهود ، وكانت له ثورات ضدهم خيفة منه على أهل توات وعقيدتهم من خبث اليهود ومكرهم ومكائدهم. أما عن القبائل فيوجد بالمنطقة الشرفاء العلويين والأدارسة من المغرب الأقصى، الكنتيين أولاد عقبة بن نافع الفهري الفاتح من القيروان...وغيرهم[5]،كما قال محمد عبد الكريم البكري التمنطيطي:" إن زناتة فروا إلى توات بعد انهيار دولتهم في القرن الرابع الهجري(10 م) وإنهم تجمعوا صوب القبلة بعد أن قطعوا ثلاثة عشرة رحلة من سجلماسة ونزلوا بأرض بودة فاستقروا هناك وحفروا الآبار ..فوجدوا أن المكان آمنا يصلح للسكن فسكنوا وتوطنوا بتوات"[6] ، والملاحظ من تواجد هذه القبائل العربية في

المجتمع التواتي ،هو التنوع في التركيبة البشرية لهذا المجتمع إذ هو مزيج من عدة قبائل بما في ذلك العرب والبربر وحتى الزنوج الذين جيء بهم من السودان الغربي ، وقد استطاع هذا المجتمع على الرغم من هذا التنوع أن يستوعب المزيد ، لقد كان لهذه الهجرة الفردية والجماعية وقعها الإيجابي على المنطقة إذ عرف أهل البلاد على أيدي هؤلاء التمدن وانتشرت بربوعهم العلوم ، وهكذا شيئا فشيئا حتى راح أهل المنطقة يتعلقون باللغة العربية والدين الإسلامي[7].

وفيما يأتي سأعرض تراجم مقتضبة لبعض العلماء الذين جاؤوا من الغرب الإسلامي وحلوا بأرض توات وأفادوا الناس بعلمهم:

ـ سليمان الإدريسي (670هـ):هو سليمان بن علي الشريف بن عمر بن أحمد حل بتوات سنة 580هـ بأمر من الشيخ أبي الحسن علي بن حرزهم (560هـ)[8] ، فنزل بمنطقة تينيلان ثم انتقل إلى منطقة أولاد عيسى وفيها أقام مدرسته وظل فيها مدرسا ومعلما ومفتيا فقصده عدد من التلاميذ بغية التعلم ، وفي آخر عمره انتقل إلى أولاد أوشن وبها توفي سنة 670هـ[9].

ـ يحيى بن يدير بن عتيق التدليسي (877هـ):حل بتوات سنة 845هـ أقام بتمنطيط فأخذ عنه عدد من التلاميذ ، واختير لمنصب القضاء لما عرف عنه من علم وصلاح[10].

ـ محمد بن عبد الكريم المغيلي (909هـ):أصله من مغيلة التلمسانية أخذ العلم عن علماء تلمسان وغيرها من حواضر الغرب الإسلامي ، ثم انتقل إلى توات حيث وجد الأمن فجالس علماء المنطقة وأخذ عن بعضهم ، كما استفاد منه البعض الآخر توفي سنة 909هـ ببوعلى[11] ، بعد أن خلّف تلاميذ وآثارا من كتب وأشعار وغيرها ، كما كان له الفضل في محاربة اليهود وإجلائهم عن المنطقة بعد أن عاثوا في البلاد فسادا.

ـ عبد الله العصموني بن أبي بكر :يتصل نسبه بالإمام علي كرم الله وجهه ، قدم إلى توات سنة 863هـ رفقة ابن أخيه سالم العصموني تـ(968هـ) ، وكان لهما الفضل في تنوير عقول أهل المنطقة بل حتى خارج توات ، تولى عبد الله العصموني القضاء في المنطقة[12].

إن حب أهل توات للعلم والعلماء جعلهم يتنقلون من بلد إلى آخر بحثا عن العلم فكانت لهم رحلات سجلها التاريخ بأحرف من ذهب ، وفيما يأتي جملة من التواتيين الذين خرجوا من ديارهم بحثا عن العلم ثم رجعوا إلى وطنهم ومعهم عقولهم وأشياء أخرى التي راحوا ينقلونها إلى أبنائهم في ثقة وثبات:

ـ عبد الكريم بن أمحمد بن أبي محمد(1042هـ) ولد بتمنطيط سنة 994هـ وأخذ العلم فيها عن أبيه أمحمد ، كما أخذ عن عبد الحاكم بن عبد الكريم الوطاسي،رحل إلى سجلماسة وأخذ عن علمائها منهم أحمد بن عبد الله بن أبي محلى السجلماسي ، ثم إلى التكرور فأخذ عن أحمد بابا التمبوكتي ،كما أخذ عن أحمد بن محمد المقري التلمساني ، وعن سعيد بن إبراهيم قدورة الجزائري[13].

ـ عمر بن عبد القادر التينيلاني (1098 – 1152هـ)ولد بقرية تينيلان عام 1098هـ حفظ فيها القرآن الكريم وفيها كانت بدايته العلمية ، ثم انتقل عام 1117هـ إلى مدينة فاس المغربية تلقى

من شيوخها ، ثم جلس للتدريس بجامع القرويين إلى سنة 1129هـ ، ثم عاد إلى بلدته وجلس فيها للتدريس ، ثم تولى القضاء عام1133هـ ، ومال في آخر عمره إلى التصوف فاعتزل الناس ، توفي 3 من ربيع الأول 1152هـ[14].

ـ عبد الرحمن بن عمر بن محمد بن معروف بن يوسف بن أحمد بن يوسف التينيلاني ، أخذ عن شيوخ من توات وآخرين من أقطار أخرى كالمغرب وغيرها ؛ فمن التواتيين عمر بن عبد القادر التينيلاني(1152هـ) ، والشيخ محمد بن اب المزمري[15] تـ(1160هـ) ، ومن المغاربة أحمد بن عبد العزيز بن إبراهيم الهلالي ، كان أحد أعلام المنطقة وإليه تشد الرحال في طلب العلم .

ـ امحمد بن أحمد بن محمد بن أبي بكر الأنصاري الزجلوي: وُلد ما بين نهاية القرن الحادي عشر ومطلع القرن الثاني عشر الهجريين ، تعلّم في تلمسان فأخذ عن ابن بوكلخ ، والمغرب ، فأخذ عن علمائها أمثال عبد الواحد القدوسي بسجلماسة وعن أحمد بن ناصر الدرعي[16] ، ثم عاد إلى زاوية زاجلو ليقوم على التدريس فيها ، في سنة 1174هـ كان حيا[17].

لقد اقتصر دور مدن الغرب الإسلامي في بدايته على نقل مؤثرات الثقافة العربية الإسلامية من المشرق العربي إلى شعوب الغرب الإسلامي ، وهذا ما حدث بتوات في البداية فقد تم نقل الكتب المشرقية والمغربية والأندلسية وتعلم الناس منها أذكر منها : مختصر خليل في الفقه المالكي ، وكتب متون الحديث كصحيحي البخاري ومسلم ، ومستدرك الحاكم ، والجامع لشعب الإيمان للبيهقي ، وتفاسير القرآن الكريم ، وفي اللغة العربية كألفية ابن مالك الأندلسي ، مقدمة ابن آجروم ، ... وغير هذا كثير ، وبعد الاطلاع على هذه الكتب قام بعضُ التواتيين بوضع حواشي عليها وهناك من وضع لها شروحا ، والبعض الآخر قام بنظم بعض منها ، لكن ما هي إلا سنوات حتى راحت العقول والأقلام تترجم هذا التفاعل في إعجاب واندهاش فنتج عنه ميلاد علماء لم يكتفوا بهذا ولم يكن ذلك ليشبع نهمهم العلمي والمعرفي فحملوا عصا الترحال وأخذوا يبحثون عن العلم في مواطنه سواء في مدن الغرب الإسلامي أو شرقه ، وقد ذكرتُ نماذج من أولائك ، كما أن علماء توات دونوا رحلاتهم تلك فكتبوا فيها كل ما رأوا وعاشوا منذ مغادرة الديار التواتية إلى غاية العودة إليها ، فهذا هو عبد الرحمن بن عمر يقول في رحلته في طلب العلم إلى سجلسماسة : " ذِكْرُ خروجنا من مسقط الرؤوس والوطن الذي تعاطينا فيه مدامة الشباب ألذ كؤوس ، أقول وبالله التوفيق إلى سراط المفعول والمنقول : خرجنا من ديارنا بالزاوية الزينية حماها الله من الفتن والأغيار وجَعَلْنا محطَّ الرحالِ الأفاضلَ والأخيارَ يوم الخميس ثاني القعد الثالث من سادس الشهور [من] السنة المذكورة (1156هـ)" [18] ، وبعد عودته إلى الديار عاود السفر إلى الحج وهي للحج وأشياء أخرى يقول : " ...ثم ارتحلنا غدا فرحنا لدارنا بالزاوية الزينية حاطها الله من شرور الزمان ، وأسبل عليها رداء العافية والأمان ، فأقمنا بها نحو شهر لقضاء بعض المآرب ومضامنة أحشاء مَنْ شقَّ عليه فراقُنا من الأخلاء والأقارب ، واجتماع الرفاق الوافدين عليها من الآفاق...هذا ولما قضينا الأوطارَ ، وحانت مفارقةُ الأوطان والأقطار ، خرجنا من ديارنا في اليوم المذكور جَعَلَنا اللهُ بفضل ذلك وسائرَ أعمالنا من السعي المشكور ، وقد استعملْنا ما وفَقَنَا ربُّنا من الآداب الشرعية ، والخصال الحميدة المرعية ، لله الحمد على الهداية ونسأله أن يحسن في النهاية كما أحسن في البداية ، وقد عنَّ لي أن أتحف أهل الريانة

ببعض آداب الحج والسفر لعلهم يجتنون منها إن شاء الله ثمار الظفر..."[19]فالرجل في رحلته هاته دون شك أفاد واستفاد من الذين التقى بهم في طريقه كما يؤكد ذلك بين سطور الرحلة.[20]

وهذا عبد الرحمن بن إدريس في رحلته إلى الجزائر المحروسة يقول : " ... فلما قدّر الله سفري لمحروسة ثغر الجزائر ، وكان سفري لها في أول شهر شعبان المنير أحد شهور سنة أحد وثلاثين ومائتين وألف (1231هـ) ، خرجت من بلدتنا زاوية تينيلان ثالث الشهر المذكور ، وفي ثامنه دخلت بلدة تيميمون قاعدة قرى قورارة ، وأقمت فيها تسعة أيام ، وخرجت في العاشر وهو الثامن عشر منه قاصدا مدينة أمزاب... "[21] ، وهذه الرحلة هي نزهة حيث يصف فيها الرحالة المناظر الطبيعية ، وهي رحلة علمية حيث التقى الرحالة بعلماء المدن التي مر بها ، وتعد وثيقةً تاريخيةً إذ تصف تفاصيل الهجوم الإنجليزي البربري على مدينة الجزائر ، ويقول الرحالة في الرحلة : إنه لم يكن يسجل إلا ما رآه بنفسه ، أو ما أخذه عن الثقات ؛ فقد قال في ختام الرحلة : "وهذا تحقيق ما وقع بين الباشا عمر وبين بيدر الانكليز طاغية انكلترا ، دمره الله وقطع دابره ، بعضه مشاهدة وبعضه بطريق الخبر من الثقات والسلام..."[22].

ولعل ذلك البحث والترحال كان له الوقع الإيجابي على أبناء المنطقة ؛ قد خلّف أولائك العلماء وراءهم تراثا مكتوبا ذكروا فيه الشيوخ الذين التقوا بهم أخذوا عنهم أثناء ذهابهم أو في عودتهم ، وهذا التواصل الثقافي الذي مده الوافدون على توات ، وأكده أبناؤها الذين انتقلوا إلى بلدان الغرب الإسلامي طلبا للعلم أنتج مؤلفات في شتى العلوم التي لها علاقة بالدين الإسلامي بالدرجة الأولى ؛ كالفقه ، والتفسير ، والحديث ، واللغة العربية ، وفي مختلف العلوم والفنون أذكر منها : التراجم والسير ، والتاريخ ، والطب ، والحساب ، والفلك ، والهندسة ، والمنطق ، والجغرافيا...

لقد عُرفت منطقة توات على مر التاريخ بأنها أرض أمان واطمئنان وهو ما كان عاملاً أساسياً في توافد عدد كبير من العلماء ، إليها من كافة الأقطار العربية والإسلامية ، على الرغم من كثرة جدبها ، وقلة رزقها ، فهي معروفة بأنها "ذات سباخ ، كثيرة الرمال والرياح ، لا تحيط بها جبالٌ ولا أشجارٌ ، شديدة الحرارة المفرطة ، لا يكاد ينبت فيها إلا النخيل وبعض الأشجار القليلة لفرط حرارتها "[23] ، وهي إلى هذا "لا تنكأ ظالماً ولا تمنع غانماً ، وهي أضعف بلاد المغرب قاطبة . غالب أهلها ضعفاء مستضعفون ، ولقلة ضعف أهلها ، وهضم قوة النفوس ، كثر فيها الصالحون والزهاد وأرباب القلوب "[24] ، " وهذه كلها عوامل شكلت الشروط الأساسية والمواتية لقدوم العلماء ، والزهاد ، واستقرارهم بالمنطقة ، ومع مرور الأيام ازداد التواصل وتوسع ، وتكثفت معه أشكال التفاعل الحضاري ومن ثم انكبت النفوس على الطروس ، وراحت الأقلام تترجم الأحاسيس والمشاعر وتعبر في دهشة وإعجاب عن واقع هذا التفاعل ، ومن ثَمّ كان لنا هذا العمر الزاخر بالمؤلفين والمؤلفات ، وفي شتى المعارف ، والعلوم واستُخدمت جل هذه العلوم والدراسات في خدمة كتاب الله ، وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام "[25].

---

1 ـ ينظر: د.بوخالفة نور الهدى.محاضرة بعنوان:"استقرار العرب وإنشاء المدن والقرى في المغرب الوسيط".نقلا من "التغييرات الاجتماعية في البلدان المغاربية عبر العصور".مخبر الدراسات التاريخية والفلسفة.جامعة منتوري قسنطينة.2001م.

2 ـ محمد باي بلعالم.محاضرة بعنوان:"التعريف ببعض الجوانب من منطقة توات وحضارتها".ألقيت في أعمال المهرجان الثقافي الأول للتعريف بتاريخ منطقة أدرار.نقلا عن الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي.ولاية أدرار 13 ـ14 شعبان 1405هـ / 3 ـ4 ماي 1985م. ص:44.

3 ـ نفسه،ص:44.

4 ـ نفسه،ص:44و45.

5 ـ نفسه،ص:45.

6 ـ محمد بن عبد الكريم البكري،درة الأقلام،مخطوط بالخزانة البكرية بتمنطيط.

7 ـ ينظر:عبد الحميد بكري،سلسلة علماء توات،دار الغرب للنشر والتوزيع،د ط ،د ت،25/2.

8 ـ دفين مدينة فاس بالمغرب الأقصى عاش في عهد المرابطين كما يعد من مجددي التصوف بالمغرب .

9 ـ ينظر:عبد الحميد بكري،النبذة في تاريخ توات وأعلامها من القرن 9 إلبى القرن 14 الهجري،دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع،عين مليلة الجزائر،د ط ،د ت،ص:74.

10 ـ نفسه ، ص:75.

11 ـ نفسه ، 77 - 79.

12 ـ نفسه ، ص:76.

13 ـ نفسه،ص:63 ـ 64.

14 ـ ينظر:جوهرة المعاني في تعريف علماء الألف الثاني،ص:23.

15 ـ هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن أبي بكر المزمري وهو نحوي ولغوي وعروضي له العديد من المنظومات في النحو والعروض ...(ينظر:جوهرة المعاني،ص:30.).

16 ـ هو أبو العباس أحمد بن حمد بن ناصر الدرعي ولد بدرعة سنة 1057هـ أخذ عن والده التفسير والحديث ومختلف العلوم كما أخذ عن غيره تصدر مشيخة الزاوية الناصرية بعد والده،توفي سنة 1129هـ.(فهارس علماء المغرب منذ النشأة إلى نهاية القرن الثاني عشر للهجرة منهجيتها ـ تطورها ـ قيمتها العلمية،عبد الله المرابط الترغي،منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان،جامعة عبد الملك السعدي،ط:1 ،1420هـ ـ 1999م،ص:662.).

17 ـ ينظر:الوجيز في شرح مختصر خليل،ص:1.وهذه الترجمة مقتبسة من نوازل الزجلوي(مخطوط)،محمد الزجلوي وآخرون،صورة منه عند الأستاذ محمد جرادي،جامعة ادرار.

18 ـ رحلة عبد الرحمن بن عمر في طلب العلم ، مخطوط بخزانة ملوكة.

19 ـ نفسه.

20 ـ ينظر:الرحلة.

21 ـ رحلة عبد الرحمن بن إدريس إلى الجزائر المحروسة ،مخطوط بخزانة با عبد الله.

22 ـ نهاية الرحلة.ص:12

23 ـ مولاي أحمد الإدريسي ، نسيم النفحات في ذكر جوانب من تاريخ توات (مخطوط)،ص:12.

24 ـ محمد بن عبد الكريم البكري، درة الأقلام في أخبار المغرب بعد الإسلام (مخطوط بخزانة كوسام)،ص:8.

25 ـ أحمد جعفري أبا الصافي،محمد بن أب المزمري حياته وآثاره،ص:31.